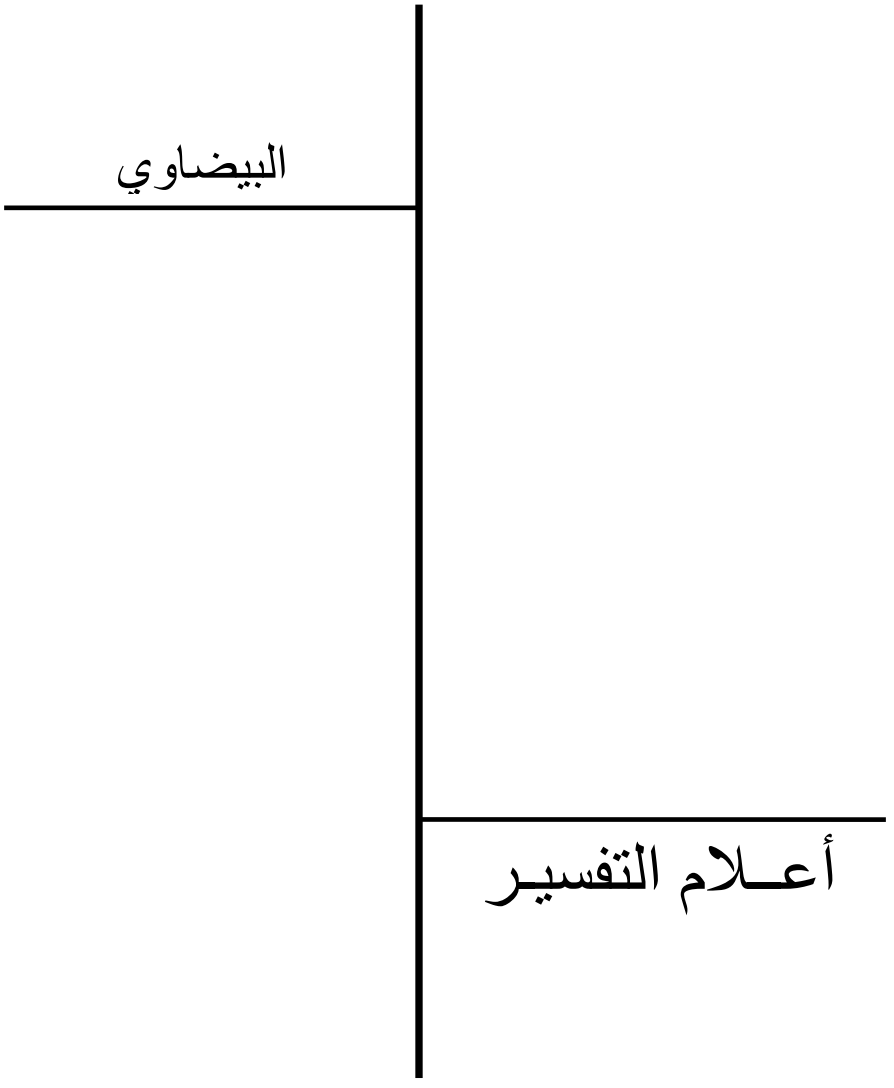
البيضاوي
أعـلام التفسيـر

البيضاوى
وتفسيره: أنوار التنزيل وأسرار التأويل

البيضاوي هو قاضى القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علىّ، البيضاوى الشافعى، وهو من بلاد فارس، قال ابن قاضى شهبة في طبقاته: " صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية. ولى قضاء شيراز ". وقال السبكى: " كان إماماً مُبرَزاً نظَّاراً خَيِّراً، صالحاً متعبداً ". وقال ابن حبيب: " تكلَّم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه ". ولى القضاء بشيراز، وتوفى بمدينة تبريز. قال السبكى والأسنوى: سنة 691 هـ (إحدى وتسعين وستمائة)، وقال ابن كثير وغيره: " سنة 685هـ (خمس وثمانين وستمائة). ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن. وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولاً بين أهل العلم.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير العلامة البيضاوى، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السُّنَّة. وقد اختصر البيضاوى تفسيره من الكشاف للزمخشرى، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى :{ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ} [البقرة: ٢٧٥] الآية، وجدناه يقول: " إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان

فيُصرَع "..ثم يفسِّر المس بالجنون ويقول : " وهذا أيضاً من زعمانهم أنَّ الجنى يمس الرجل فيختلط عقله ".

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشرى من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوى قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولستُ أعرف كيف اعترَّ بها البيضاوى فرواها وتابع الزمخشرى في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتى اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكتفى لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوى له قيمته ومكانته. وكذلك استمد البيضاوى تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازى، ومن تفسير الراغب الأصفهانى، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز، وعبارة تدُق أحياناً وتخفى إلا على ذى بصيرة ثاقبة، وفطنة نيِّرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : { وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ } [البقرة: ٢٢٨].. يقول ما نصه: وقُروء جمع قُرء، وهو يُطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام: ﷺ **دَعِى الصلاة أيام أقرائك** ـــ وللطُهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

:: لما ضاع فيها من قُروء نسائكما : مورثة مالاً وفي الحى رفعة

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية، لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } [الطلاق: ١]، أى وقت عدّتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: ♂**طلاق الأمة تطليقتان وعدتُّها حيضتان ـــ**، فلا يُقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر: ♂**مُرْهُ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العِدَّة التي أمر الله تعالى أن تُطَلَّق لها النساء ـــ**... إلخ. كذلك نجد البيضاوى كثيراً ما يقرر مذهب أهل السُّنَّة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: { ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة: ٢ - ٣]، نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السُّنَّة والمعتزلة والخواراج. بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السُّنَّة.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: {وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة: ٣]، نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السُّنَّة والمعتزلة فيما يُطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السُّنَّة.

والبيضاوى رحمه الله مُقِلٌّ جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يُصدِّر الرواية بقوله: رُوى، أو قيل... إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: { فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ } [النمل: ٢٢]، يقول بعد فراغه في تفسيرها: رُوى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج..

إلى آخر القصة التي يقف البيضاوى بعد روايتها موقف المجوِّز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: " ولعله في عجائب قدرة الله وما خصّ به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها مَن يعرفها، ويستنكرها مَن ينكرها ".

ثم إن البيضاوى إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازى، الذي استمد منه كما قلنا. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ١٠]، نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: الشهاب ما يُرى كان كوكباً انقض، ثم يرد على مَن يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين - إن صَحَّ - لم يُناف ذلك ".. إلى آخر كلامه في هذا الموضوع.

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوى في تفسيره، والمبيِّنة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوى نفسه في مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه: " ولطالما أحدَّث نفسى بأن أصنِّف في هذا الفن - يعنى التفسير - كتاباً يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومَن دونهم من السَلَف الصالحين، وينطوى على نِكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلى مِن أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المَزِّية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القرَّاء المعتوين، إلاَّ أن قصور بضاعتى يُثبطنى عن الإقدام، ويمنعنى عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لى بعد الاستخارة ما صمم به عزمى على

الشروع فيما أردته، ولاإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ".

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: " وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوى على فوائد ذوى الألباب. المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأُمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه. والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال، والتلخيص العارى عن الإضلال، الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ".

وكأنِّى به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخَّصَ منه، ضمن ما اختصره ولخَّصَه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

ويقول جلال السيوطى - رحمه الله - في حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ " نواهد الأبكار وشوارد الأفكار " ما نصه: " وإن القاضى ناصر الدين البيضاوى لخَّصَ هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مُستجاد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرَّر مُهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نِضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهَج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكَبَّ عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة ".

ويقول صاحب كشف الظنون ما نصه: " وتفسيره هذا - يريد تفسير البيضاوى - كتاب عظيم الشأن غنى عن البيان، لخَّصَ فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعانى والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات. وضم إليه ما وَرَّى زناد فكره

من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشى:

أولوا الألباب لم يأتوا : بكشف قناع ما يُتلى
ولكن كان القاضى :: يد بيضاء لا تُبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع عن تارة عن وجوه محاسن الإشارة، ومُلح الاستعارة، وهتك الأستار أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها. وترجمان المناطقة وميزاتها، فحل ما أشْكَلَ على الآنام، وذلَّل لهم صِعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يُؤْمَنُ به عن الشُبَه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة. والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ " قيل "، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرَّد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغى أن يكون من الوجوه التفسيرية السُّنِّية، كقوله : وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، ونحو ه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه، فمَن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء، لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة. وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلَّموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوى فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقلّ من برز في فن إلا وصدَّه عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستعبد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر

على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرّض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلَّى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رُزِق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحولَ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علَّق تعليقه على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه ".. ثم عَدَّ من هذه الحواشى ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومَن شاء الاطلاع على ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبى أن أقول: إن أشهر هذه الحواشى وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية القاضى زاده، وحاشية الشهاب الخفاجى، وحاشية القونوى.

وجملة القول.. فالكتاب من أُمهات كتب التفسير، التي لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه، وهو مطبوع عدة طبعات، ومتوسط في حجمه [1].

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، 4 / 55 - 57.